بسم الله الرحمن الرحيم

و الصلاة و السلام على أشرف المرسلين

مُقَدِّمَة

لسبب ما، كان الفضاء الروائي من أقل العناصر الروائية إثارة لاهتمام الباحثين، حيث كان يُنظر إليه نظرة جانبية تقلل من شموليته، و تتجاوز أبعاده الدلالية و الرمزية... إذ كانت تتم مقاربة المكان من زوايا جانبية دون التركيز عليه و على علاقاته بمكونات التخيل الروائي.

و منه اهتمت الدراسات العربية في السنوات الأخيرة بالفضاء من خلال علاقاته بالشخصيات و الأزمنة و الأحداث، و الرؤية السردية، و باقي عناصر البناء الروائي للإمساك بكل الدلالات الرمزية و الأيديولوجية التي سنأتي إلى كشفها.

و بغية المساهمة في دراسة القضايا ذات العلاقة القوية بالفضاء بوصفها بنية جمالية داخل النص السردي، أُقدم هذا العمل الموسوم، بـ:

"جماليات الفضاء في روايات واسيني الأعرج"

و الواقع أن اختيار هذا الموضوع دون غيره كان بدافع ذاتي بدرجة كبيرة، لأنه يشكل معنى في نظري، باعتبار ظاهرة الفضاء تؤسس لحلقة في المرحلة الفكرية و الجمالية في العالم العربي و الغربي على السواء.

و قد نظرت إلى موضوع البحث (جماليات الفضاء) على أنه إشكالية، تتنازعها رؤى مختلفة، و استراتيجيات متضاربة حول تحديد ماهيتها، و وظيفتها، و منه جاءت هذه المقاربة لتنصبَّ على دراسة الخصائص الأساسية المرتبطة بالفضاء؛ بشعريته، و بجماليته، بسيميائه، وبأيديولوجيته، وهندسته... و من هنا كان يجب أن تتنوع تساؤلاتي، و تأخذ هذه الصيغ:

- لماذا الفضاء؟
- و لماذا الفضاء الروائي بالذات؟

و ضمن هذا الأمر الشائك حددت معالجة الفضاء الروائي ضمن استراتيجية منهجية تستدعي عدة أهداف كمنطلق لتفكيك الأعمال الروائية، و كذا إيجاد آليات هذا التفكيك الذي يستدعي وجود آليات نقدية جمالية، و أن هذه الآليات تطرح أسئلة أخرى بإمكانها أن تحدد هدف الدراسة، و هي الآتية:

- ما هو الفضاء الأدبي؟
- ما هو الفضاء الروائي؟
- ما هي قيمة الفضاء في الكتابة الروائية؟
- أين إشكالية الفضاء في الدراسات الروائية؟ و في الرواية الجزائرية بالذات؟
- كيف تدارِس الرواية الجزائرية الفضاء؟ و كيف تنظر إليه؟

و تقوم هذه الاستراتيجية على تحديد كل ما من شأنه أن يخدم الفضاء سواء من الناحية النظرية، أم التطبيقية، مع الوقوف على التحولات الدلالية، التي طرأت على الفضاء الروائي، من كل الجوانب، و المفاضلة بين هذه الدلالات التي توصلت إليها تبعاً للثابت منها. و للقبض على عناصر الموضوع، فرضت على نفسي قراءة أغلب النصوص الروائية في الجزائر حتى وجدت نصوص واسيني الأعرج هي التي تفي بالفكرة و الغرض المطلوبين في دراستي هذه، فاخترته مقصداً لهذه الدراسة.

و في حقيقة الأمر إن القبض على دلالات النصوص الروائية المطبق عليها، كانت كالأشباح التي ظلت تراودني في شكل أحلام و كوابيس، و تلازمني طيلة كتابة هذا البحث، و في كل مرّة أسعى إلى رفع التوهم للوصول إلى الجوهر الذي يسعى بدوره إلى التخفي و الانفلات، وكلما قبضت على بعض منه، صار زئبقياً ليتملص من جديد. و لهذا رأيت بأن هذه المحاولة لا يمكن إلا أن تعد ناجعة، بعد مجموعة من القراءات المتنوعة، و منه ركّزت دراستي على بعض النصوص الإبداعية لواسيني الأعرج التي رأيت أن أجمعها في فضاء واحد لتتعايش فيه.

و قد جاء اختياري لهذه النصوص انطلاقاً من قناعتي بتوفر هذه النصوص في معظم ما يؤكد توجهي ضمن دراسة جماليات الفضاء من خصائص فنية و بواعث على الكتابة، و تشكيل المشاهد الوصفية التي بدورها أدت دوراً مهماً في تحديد هذه الجماليات. و إذا كان الغرض من هذه الدراسة

هو تحديد أصالة الفن، فهذا يجبرني على الاعتماد على الأسس الجمالية لهذا الجنس، ومنه نُقيِّم هذا الإنتاج على أساس انتمائه العربي، لأنه يعيش في مناخ الثقافة العربية، و ينزع إلى إيجاد مستقبل عربي، فقد بات من الضروري، التفكير في بناء الإنسان العربي. و قد تمّ اختياري لهذه الروايات كدعوة إلى التأصيل، و محاولة لتنبيه المبدع إلى حاجة المجتمع لفن منبثق عن تراثه وحاجاته و مطامحه القومية، و كان لابدّ أن أتحمّل مسؤولية البحث والتقصي لإيضاح معالم جمالية فنيّة متميزة، لم أبتكرها، و لكنني كشفت النقاب عنها.

و كملاحظة أولى، يبدو لي من قراءة متكررة لواسيني الأعرج أنه كتب مطولة روائية، تتشكل من عدد لا بأس به من الروايات، و تلتقي هذه المطولة في عدد من القضايا، و التيمات والشخصيات، و المشاهد؛ أي أن فضاء واحداً مشتركاً يجمع الأعمال الروائية كلها لهذا الروائي، و ربما كان مفهوم الفضاء الروائي -كما قدمناه- هو الذي يفتح لنا المجال، و يوضح لنا الرؤية على ما اعتبرته مطولة روائية، بالرغم من كونها تتبدى لأول وهلة كروايات منفصلة عن بعضها، و لهذا تمّ الاشتغال على بعض روايات واسيني دون غيرها.

إن نظرتي إلى موضوع الفضاء جاءت باعتباره مكوناً سردياً في المقام الأول، و لهذا جرت الإفادة في هذا السياق من السيميائيات، و سائر العلوم الإنسانية التي اهتمت بالفضاء الروائي، ولذلك أرى من الأهمية بما كان ، أن ننهض من جديد لبلورة و إثراء عنصر الفضاء باعتباره مكونا سرديا، و هذا نظراً لحجم النصوص المطبق عليها من جهة، و لصعوبة القبض على المفاهيم النظرية من جهة ثانية، و منه سعيت إلى ربطه بإطار سيميائي عام، قيَّدته بأدواته الإجرائية التي سهّلت لي -إلى حدٍّ ما- عملية القبض على بعض الدلالات المخبوءة وراء السطور، وساعدتني على مقاربة نصوص هذا الكاتب، التي كانت بمثابة المخزن الفكري المعين على الإلمام بأطراف الظاهرة الفضائية، حيث كانت كفيلة في رأيي بإلقاء بعض الأضواء عليها في الأدب الروائي العربي.

و رغبة مني في الإحاطة بالموضوع، اقترحت للبحث خطة تقوم على: مدخل، و ثلاثة أبواب تشكل في مجموعها تسعة فصول، فكان المدخل بعنوان "تطور المفهوم من المكان إلى الفضاء" و فيه ركزت على تحديد المصطلح و دلالاته المختلفة.

و جاء الباب الأول موسوماً بـ: "موضوعات الفضاء عند واسيني" الذي تشكل من ثلاثة فصول، رُتبت على النحو التالي:

1. شعرية الفضاء المتخيل.
2. أيديولوجية الفضاء الممكن.
3. استراتيجية الفضاء الوجودي و المتخيّل.

أما الباب الثاني فقد خصصته لـ: "الفضاء بين الفلسفة و الجمالية عند واسيني"، و الذي احتوى بدوره على ثلاثة فصول، جاءت كما يلي:

1. الفضاء الهوية عند واسيني الأعرج.
2. التجلي الذاتي و الاجتماعي في رسم معالم الفضاء.
3. من فضاء الاغتراب إلى اغتراب الفضاء.

في حين جاء الباب الثالث موسوماً بـ: "الفضاء من الإضمار إلى التجلي عند واسيني الأعرج"، حيث اقتصرت مقاربته على الجوانب الدلالية من خلال فصول ثلاثة، هي:

1. الفضاء و التحول الدلالي.
2. تطور الأيقونة و وظيفتها الفنية في البنية الفضائية.
3. الفضاء بين المؤشر و الإشارة.

و لابدّ من التنبيه إلى أن هذه الفصول لم تكن متجانسة بشكل تام، من حيث الكم، و هو أمر فرضته طبيعة البحث، حيث نجد المادة البحثية كثيفة في فصول، ضئيلة في أخرى. كما اقتضت طبيعة البحث التركيز على الجوانب النظرية و التطبيقية معاً، كي لا يجد الدارس نفسه مجبراً بالعودة إلى بعض المراجع لتحديد المفاهيم النظرية التي تتوافق و الجانب التطبيقي.

كما رأيت أن مهمة البحث في موضوع الفضاء كانت ملحّة، و لكنني لم أجد في حدود ما أتيح لي من قراءات، على ما يروي عطشي. و أن كل ما تيسّر لي من دراسات في هذا المجال، إنما كانت تتخذ من مصطلح المكان متناً لها، و كانت -تبعاً لذلك- تكتفي بتفصيل مفهوم المصطلح دون اهتمام يذكر بالمفاهيم التي تحيط بالفضاء، و انطلاقاً من هنا تزودت بمجموعة من المصادر

والمراجع، مراهنا على عنصر الجدّة و الحداثة في أكثرها، كما ينبغي التنويه ببعض الإعمال الأكاديمية التي كانت على صلة بالموضوع، من دوريات متخصصة، و مخطوطات في ذات الشأن.

و لذا سعيت إلى تحديد مفهوم الفضاء في الفكر العربي، إذ لم يكن الموضوع سهلاً على الإطلاق، ولعل الصعوبة تكمن في تدقيق المفاهيم، التي اقتضتها سيرورة البحث، خاصة في محاولاتي للقبض على مفهوم دقيق للفضاء، نظراً لكثرة المصطلحات التي دارت حوله، و خاصة تلك التي تخلط بين مفهوم الفضاء، و مفهوم المكان. و منذ أن انطلقت في كتابة البحث؛ انطلقت من مبدأ أن البحث يعني العزلة التامة، حيث جاءت الأفكار و النظريات التي استبدت بيّ كاللازمة التي جعلتني متتبعاً لكل ما يتعلق بهذه البنية.

و في الأخير أشكر كل من آزرني في صبري العلمي، و البحث ما يزال في أوله، و على رأس هؤلاء: الأستاذ الدكتور بشير بويجرة محمد. و أؤكد على أنّ هذه الدراسة ستظلُّ مدينة لعدد من الأصدقاء، و الزملاء، ولم يكن هذا من باب التقليد، و إنما من باب التأكيد على الشكر.

و الحمد لله الذي له الشكر و الثناء من قبلُ و من بعدُ، هو نعم المولى و نعم المعين.

الطالب: عبد القادر شريف حسني

زمالة الأمير عبد القادر/ تيارت

28 شوال 1431هـ

الموافق لـ: 07 أكتوبر 2010م